فإنْ كانت شهادة الشاهد فى حوادث الدنيا تقوم على الإخبار بما حدث ، وعليها يترتب الحكم فإن شهادة الحق سبحانه تعنى أنه تعالى الشهيد الذى رأى ، والحاكم الذى يحكم ، والسلطة التنفيذية التى تنفذ .

لذلك قال : ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [الإسراء]

فهو كافيك هذا الأمر ؛ لأنه كان بعباده (خَبِيراً) يعلم خفاياهم ويطّلع على نواياهم من وراء هذا التعنُّت (بَصِيراً) لا يخفى عليه شىء من أمرهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾

سبق أنْ قُلْنا : إن الهداية نوعان : هداية الدلالة المطلقة والتى تكون لجميع الخلق المؤمن والكافر ، فقد دَلَّ الله المؤمن والكافر على الطريق المستقيم وبيَّنه لهم وأرشدهم إليه .

والأخرى : هداية التوفيق والمعونة للقيام بمطلوبات المنهج الذى آمنوا به ، وهذه خاصّة بالمؤمن ، فبعد أنْ دَلَّه الله آمن وصدَّق واعترف لله تعالى بالفضل والجميل ، بأن أنزل له منهجاً ينظم حياته . فأتحفه الله تعالى بهداية التوفيق والمعونة .

وعن الهداية يقول الحق سبحانه : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. ۝﴾ [فصلت]

أى : دَلَلْناهم على الطريق المستقيم ، لكنهم استحبُّوا العمى والضلال على الهدى ، فمنع الله عنهم معونته وتوفيقه .

والحق سبحانه يخاطب رسوله ﷺ بأسلوبين قرآنيين يوضِّحان هذيْن النوعيْن من الهداية ، يقول تعالى : ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ .. ۝﴾ [القصص]

فنفى عن رسول الله هداية التوفيق والمعونة ؛ لأنه ﷺ لا يملكها ، وفى آية أخرى قال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝﴾ [الشورى]

فأثبتَ له هداية البيان والدلالة ؛ لأن هذه هى مهمته كمبلِّغ عن الله ، وهكذا أثبتَ له الحدث ونفاه عنه ؛ لأن الجهة مُنفكَّة أى : أن جهة الإثبات غير جهة النفى ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لايَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ۝﴾ [الروم]

فمرة : نفَى عنهم العلم ، ومرة أخرى : أثبتَ لهم العلم . والمراد أنهم لا يعلمون حقائق الأمور ، ولكنهم يعلمون العلوم السطحية الظاهرة منها . ونحن نكرِّر مثل هذه القضايا لكى تستقرّ فى النفس الإنسانية ، وفى مواجيد المتدينين فينتفعوا بها .

ومن ذلك أيضاً قَوْلُ الحق سبحانه : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ .. ۝﴾ [الأنفال]

فأثبت للرسول رَمْياً ، ونفى عنه رَمْياً ، لكن إذا جاء هذا الكلام من بليغ حكيم فاعلم أن الجهة مُنفكّة ؛ لأن النبى ﷺ فى غزوة بدر أخذ حَفْنة من التراب ورمى بها نحو أعدائه ، وهذا هو الرّمْى الذى أثبته الآية ، وقد تولّتْ القدرة الإلهية إيصال ذرات هذه الحفنة إلى عيون الأعداء ، فأصابتهم جميعاً وشغلتْهم عن القتال ، وهذا هو الرّمْى الذى نفاه الحق عن رسوله ﷺ[1] .

ولتقريب هذه المسألة : ابنك الذى تحمله على المذاكرة وتُرغمه عليها يأتى بالكتب ويضعها أمامه ويُقلّب فيها ليوهمك أنه يذاكر ، فإذا ما راجعتَ معه ما ذاكر لا تجدْه حصّل شيئاً فتقول له : ذاكرتَ وما ذاكرت ، فتُثبِت له الحدث مرة ، وتنفيه عنه أخرى ؛ لأنه ذاكر شكلاً ، ولم يذاكر موضوعاً .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى يهدى الجميع هداية إرشاد وبيان ودلالة ، ويختص مَنْ آمن بهداية المعونة والتوفيق للقيام بمقتضيات المنهج ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

وقال عن الآخرين : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) ﴾ [الصف] لكن يهدى العادلين .

وقال : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) ﴾ [الصف] .. لكن يهدى الطائعين .

(١) قال الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص١٣٣) : « أكثر أهل التفسير أن الآية نزلت فى رمى النبى عليه الصلاة والسلام القبضة من حصباء الوادى يوم بدر حين قال للمشركين : شاهت الوجوه . ورماهم بتلك القبضة ، فلم يبق عين مشرك إلا دخلها منه شىء » ، وانظر الآثار المروية فى هذا فى الدر المنثور للسيوطى (٤/ ٤٠ ، ٤١) .

وقال : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة] .. لكن يهدى المؤمنين .

إذن : بيَّن الحق سبحانه فى أساليب القرآن مَنْ شاء هدايته ، أما مَنْ آثر الكفر وصمم ألاَّ يؤمن فهو وشأنه ، بل ويزيده الله من الكفر ويختم على قلبه ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) ﴾ [الأنعام]

نعود إلى (مَن) فى قوله تعالى : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ .. (٩٧) ﴾ [الإسراء] قلنا : إن (من) اسم موصول بمعنى الذى ، واستخدام (مَنْ) كاسم موصول لا يقتصر على (الذى) فقط ، بل تستخدم لجميع الأسماء الموصولة : الذى ، التى ، اللذان ، اللتان ، الذين ، اللاتى . فتقول : مَنْ جاءك فأكرمْه ، ومَنْ جاءتك فأكرمْها ، ومَنْ جاءاك فأكرمهما ، ومَنْ جاءتاك فأكرمهما ، ومَنْ جاءوك فأكرمهم ، ومَنْ جئنَكَ فأكرمْهُن .

فهذه ستة أساليب تؤديها (مَن) فهى - إذن - صالحة للمذكّر وللمؤنّث وللمفرد وللمثنى وللجمع ، وعليك أن تلاحظ (مَنْ) فى الآية : ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ .. (٩٧) ﴾ [الإسراء] جاءت (مَنْ) دالّة على المفرد المذكر ، وهى فى نفس الوقت دالّة على المثنى والجمع المذكر والمؤنث ، فنقول : مَنْ يهدِهَا الله فهى المهتدية ، ومَنْ يهدهم الله فهم المهتدون . وهكذا .

ونسأل : لماذا جاءت (مَنْ) دالة على المفرد المذكر بالذات دون

غيره في مجال الهدى ، أما في الضلال فجاءتْ (مَنْ) دالَّة على الجمع المذكّر ؟

نقول : لأنه لاحظ لفظ (مَنْ) فأفرد الأولى ، ولاحظ ما تطلق عليه (من) فجمع الثانية : ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ .. ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء]

وهنا ملْحظ دقيق يجب تدبُّره : في الاهتداء جاء الأسلوب بصيغة المفرد : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ .. ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء] لأن للاهتداء سبيلاً واحداً لا غير ، هو منهج الله تعالى وصراطه المستقيم ، فللهداية طريق واحد أوضحه رسول الله ﷺ بقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »[(1)] .

أما في الضلال ، فجاء الأسلوب بصيغة الجمع : ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ .. ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء] لأن طرق الضلال متعددة ومناهجه مختلفة ، فللضلال ألف طريق ، وهذا واضح في قول الحق سبحانه : ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ .. ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام]

والنبي ﷺ حينما قرأ هذه الآية خَطَّ للصحابة خَطّاً مُسْتقيماً ، وخَطَّ حوله خطوطاً مُتعرِّجة ، ثم أشار إلى الخط المستقيم وقال : « هذا ما أنا عليه وأصحابي »[(2)] .

---

(1) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب « السنة » (١٢/١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأورده ابن رجب الحنبلي في « جامع العلوم والحكم » ص (٤٦٠) وضعَّفه .

(2) عن عبد الله بن مسعود قال : خط رسول الله خطاً بيده ، ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً ، ثم خط عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ .. ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام] . أخرجه أحمد في مسنده (٤٦٥/١) والحاكم في مستدركه (٣١٨/٢) وقال : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » . وكذا أخرجه ابن حبان (١٧٤١ ـ موارد الظمآن) .

إذن : للهداية طريق واحد ، وللضلال ألْف مذهب ، وألف منهج ؛ لذلك لو نظرتَ إلى أهل الضلال لوجدتَ لهم فى ضلالهم مذاهب ، ولكل واحد منهم هواه الخاص فى الضلال . فعليك أنْ تقرأ هذه الآية بوعى وتأمُّل وفَهْم لمراد المتكلّم سبحانه ، فلو قرأها غافل لَقال : فلن تجد له أولياء من دونه ، ولاتبع الثانية الأولى .

ومن هنا تتضح توقيفية القرآن ، حيث دقة الأداء الإلهى التى وضعتْ كُلَّ حَرْف فى موضعه .

وقوله : (أَوْلِيَاءَ) أى : نُصَراء ومعاونين ومُعينين (مِنْ دُونه) أى : من بعده ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ .. ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء]

الحشْر : القيام من القبور والجمع للحساب (عَلَى وُجوههم) هنا تعجب بعض الصحابة ، فسألوا رسول الله : وكيف يسير الإنسان على وجهه ؟ فقال ﷺ : « إن الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يُمشيهم على وجوههم »(١) .

وما العجب فى ذلك ونحن نرى مخلوقات الله : ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ .. ﴿٤٥﴾﴾ [النور]

ألم تَرَ الثعبان ، كيف هو سريع فى مِشْيته ، خفيف فى حركته ، فالذى خلق قادر أن يُمشىَ من ضلَّ فى القيامة على بطنه ، لأن

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يُحشر الناس ثلاثة أصناف : صنفاً مشاة ، وصنفاً ركباناً ، وصنفاً على وجوههم ، قالوا : يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم . قال : إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم » أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٥٤ ، ٣٦٣) ، والترمذى فى سننه (٣١٤٢) وحسَّنه .

المسـألة إرادة مريد ليُوقع بهم غـاية الذِّلَّة والهوان ، ويـاليتـهم تنتهى بهم المهانة والمـذلّة عند هذا الحدَّ ، بل ﴿ **وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا .. ﴿٩٧﴾** ﴾ [الإسراء]

هذا استطراق لوسـائل الإهانة ، ففضـلاً عن مَشْيـهم على الوجوه فهم عُمْى لا يرونَ شيئاً ، ولا يهـتدون ، وهم صُمٌّ لا يسمعون نداءً ، وهم بُكْمٌ لا يقدرون على الكلام ، ولك أنْ تتصوَّر إنسـاناً جمعت عليه كل هذه الوسائـل ليس فى يوم عادى ، بل فى يوم البـعث والنشور ، فإذا به يُفَـاجأ بهوْل البـعث ، وقد سُدَّتْ عـليه جمـيع منافذ الإدراك ، فهـو فى قلب هذا الهَـوْل والضجـيج ، ولكنه حائر لا يـدرى شيـئاً ، ولا يدرك ما يحدث من حوله .

ولنا هنا لفتـة على هذه الآية ، فقـد ورد فى القرآن كثـيراً : صُمٌّ بُـكْم بهـذا الترتيب إلا فى هذه الآية جـاءت هكذا : (بُـكْمًا وَصُـمًّا) ومعلوم أن الصَّمَم يسـبق البكَم ؛ لأن الإنسان يحكى ما سمـعه ، فإذا لم يسمع شيئاً لا يسـتطيع الكلام ، واللغة بنت السماع ، وهى ظاهرة اجتماعية ليستْ جنساً وليست دَماً .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الولد الإنجليزى إذا تربَّى فى بيئة عربية يتكلم بالعربية والعكس ؛ لأن اللغة ليست جنساً ، بل ظاهرة اجتماعية تقوم على السماع ، فـما تسمعـه الأذن يحكيه اللسان . حتى العـربى نفسه الذى يعيش فـى بيئة عـربية ، إلا أنه لم يسـمع هذه الألفاظ الغـريبة المتقعِّرة لا يستطيع محاكاتها ولا يعرف معناها .

لكن فى هذه الآية جاء البكَم أولاً ، لماذا ؟ لأنه ساعة يُفاجأ بهوْلِ البعث والحـشر كان المفـروض أن يسـأل أولاً عمَّا يحـدث ، ثم يسمع

بعد ذلك إجابة على ما هو فيه ، لكنه فُوجِئ بالبعث وأهواله ، ولم يستطع حتى الاستفسار عمَّا حوله ، وهكذا سبق البكَم الصَّمَم فى هذا الموقف .

وهنا أيضاً اعتراض لبعض المستشرقين ومَنْ يُجاورونهم ممَّنْ أسلموا بألسنتهم ، ولمْ تطمئن قلوبهم لنور الله ، يقولون : القرآن يقول : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا .. ﴿٩٧﴾ ﴾ [الإسراء] فينفي عنهم الرؤية ، وفى آيات أخرى يقول : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [مريم]

﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [الكهف]

فاثبت لهم الرؤية ، فكيف نجمع بين هذه الآيات ؟ والمتأمل فى حال هؤلاء المعذَّبين فى موقف البعث يجد أن العمى كان ساعة البعث ، حيث قاموا من قبورهم عُمْيًا ليتحققَ لهم الإذلال والحيرة والارتباك ، ثم بعد ذلك يعودون إلى توازنهم ويعود إليهم بصرهم ليشاهدوا به ألوان العذاب الخاصة بهم ، وهكذا جمع الله عليهم الذل فى الحالَيْن : حال العمى وحال البصر .

لذلك يقول تعالى : ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [ق]

ثم يقول تعالى : ﴿ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [الإسراء] مأواهم : أى : مصيرهم ونهايتهم . خَبَتْ : خبت النار . أى : ضَعُفَت أو انطفأتْ ، لكن ما دام المراد من النار التعذيب ، فلماذا تخبو النار أو تنطفىء ؟ أليس فى ذلك راحة لهم من العذاب ؟

المتأمل فى الآية يجد أن خفوت النار وانطفاءها هو فى حدِّ ذاته

لَوْنٌ من العذاب ؛ لأن استدامة الشيء يُوطِّن صاحبه عليه ، واستدامة العذاب واستمراره يجعلهم في إِلْف له ، فإنْ خَبَت النار أو هدأتْ فترةً فإنهم سيظنون أن المسألة انتهت ، ثم يُفاجئهم العذاب من جديد ، فهذا أنكَى لهم وآلم في تعذيبهم .

وهذا يُسمُّونه في البلاغة « اليأس بعد الإطماع » ، كما جاء في قول الشاعر :

فَأصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الغَدَاةَ كَقَابِضٍ   عَلَى المَاء خَانَتْهُ فُرُوجُ الأصَابِعِ

وفي السجون والمعتقلات يحدث مثل هذا ، فترى السجين يشتد به العطش إلى حَدٍّ لا يطيقه ، فيصيح بالحارس ويتحنن إليه ويرجوه كوباً من الماء ، فيأتي له بكوب الماء حتى يكون على شَفَتَيْه ، ويطمع في أنْ يبلّ ريقه ويطفيء غُلّته ، فإذا بالحارس يسكبه على الأرض ، وهذا أنكى وأشدّ في التعذيب .

وقد عبَّر الشاعر[1] عن هذا المعنى بقوله :

كَمَا ابرقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ   فَلَمَّا رَجَوْهَا أقْشَعَتْ وتَجلَّتِ[2]

أي : ساعة أنْ رأوْهَا ، واستشرفوا فيها الماء إذا بها تنقشع وتتلاشى ، وتُخيِّب رجاءهم فيها .

---

(١) هو : كثير بن عبدالرحمن الخزاعي أبو صخر ، شاعر متيم مشهور ، من أهل المدينة ، أكثر إقامته بمصر ، أخباره مع عزة بنت حميل الضمرية كثيرة ، وكان عفيفاً في حبه . توفي ١٠٥ هـ (الأعلام للزركلي ٥/٢١٩) .

(٢) البيت لكُثَيِّر عزة . انظر ديوانه (ص١٠٧) - دار الثقافة بيروت ١٩٧١ ، تحقيق إحسان عباس . وقال شهاب الدين محمود الحلبي (ت ٧٢٥ هـ) في كتابه : « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » تحقيق أكرم عثمان يوسف (ص ١٢١) « فإن مجرد قوله « أبرقت قوماً عطاشاً غمامة » ليس تشبيهاً مستقلاً بنفسه ؛ لأن مقصود الشاعر أن يصف ابتداء مطمعاً أدى إلى انتهاء مؤيس » .

وكذلك من ألوان العذاب التى قد يظنُّها البعض لَوْناً من الراحة فى جهنم والعياذ بالله ، أن الله تعالى يُبدِّل جلودهم بجلود أخرى جديدة ، لا رحمةً بهم بل نكايةً فيهم ، كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء]

لأن الجلود إذا نضجتْ وتفحَّمتْ امتنع الحسُّ ، وبالتالى امتنعتْ إذاقة العذاب ، إذن : العلة من تبديل الجلود تجديدُ الحسِّ ليذوقوا العذاب إذاقةً مستديمة . ومنذ عهد قريب كانوا يظنون أن الحسَّ يأتى من المخ ، إلا أنهم لاحظوا على الإنسان إحساساً قبل أن يصل شىء للمخ .

فمثلاً : لو أشرت بأصبعك إلى عين إنسان تراه يُغمض عينه قبل أنْ تلمسه ، وفسَّروا ذلك بما يسمونه العكس فى النخاع الشوكى ، ثم توالت البحوث للتعرف على مناط الحسِّ فى الإنسان أيْن هى ؟ إلى أن انتهت تلك الأبحاث إلى ما أخبر به القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان ، من أن الجلد هو مركز الإحساس فى الإنسان ، بدليل أنك إذا أخذتَ حقنة مثلاً ، فبمجرد أن تخترق طبقة الجلد لا تشعر بألمها .

فمن أين عرف العرب هذه النظريات العلمية الدقيقة ؟ ومَنْ أخبر بها الرسول ﷺ؟ إنه لَوْنٌ من ألوان الإعجاز القرآنى للعرب ولغيرهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوٓا أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا[1] أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) ﴾

(١) رفت الشىء رفتاً : جعله رفاتاً ، أى : دقه وكسَّره وجعله قطعاً صغيرة . [القاموس القويم ١/ ٢٧٠] .

(ذَلِكَ) أى : ما حدث لهم من العذاب الذى تستبشعه أنت (جَزَاؤُهُمْ) أى : حاق بهم العذاب عَدْلاً لا ظُلْماً ، فإياك حين تسمع آيات العذاب هذه أنْ تأخذك بهم رأفة أو رحمة ؛ لأنهم أخذوا جزاء عملهم وعنادهم وكفرهم ، والذى يعطف قلوب الناس على أهل الإجرام هو تأخير العقاب .

فهناك فَرْقٌ بين العقوبة فى وقت وقوع الجريمة ، وهى ما تزال بشعةً فى نفوس الناس ، وما تزال نارها تشتعل فى القلوب ، فإنْ عاقبتَ فى هذا الجو كان للعقوبة معنىً ، وأحدثتْ الأثر المرجوَّ منها وتعاطفَ الناس مع المظلوم بدلَ أنْ يتعاطفوا مع الظالم .

فحين نُؤخِّر عقوبة المجرم فى ساحات المحاكم لعدة سنين فلا شكَّ أن الجريمة ستُنْسَى وتبرد نارها ، وتتلاشى بشاعتها ، ويطويها النسيان ، فإذا ما عاقبتَ المجرم فلن يبدو للناس إلاَّ ما يحدث من عقوبته ، فترى الناس يرأفون به ويتعاطفون معه .

إذن : قبل أن تنظر إلى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]

وإلى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [الإسراء]

انظر إلى ما فعلوه ، واعلم أن هذا العذاب بعدل الله ، فاحذر أنْ تأخذك بهم رحمة ، ففى سورة النور يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [النور]

ثم يُوضِّح سبحانه وتعالى حيثية هذا العذاب : ﴿ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا

بِآيَاتِنَا .. ﴿٩٨﴾ [الإسراء] والآيات تطلق على الآيات الكونية ، أو على آيات المعجزات المؤيِّدة لصدْق الرسول ، أو آيات القرآن الحاملة للأحكام .. وقد وقع منهم الكفر بكل الآيات ، فكفروا بالآيات الكونية ، ولم يستدلوا بها على الخالق سبحانه ، ولم يتدبَّروا الحكمة من خَلْق هذا الكون البديع ، وكذلك كفروا بآيات القرآن ولم يُؤمنوا بما جاءتْ به .

وهذا كله يدلُّ على نقص فى العقيدة ، وخَلَل فى الإيمان الفطرى الذى خلقه الله فيهم ، وكذلك كذَّبوا بمعجزات الرسول ، فدلَّ ذلك على خَلَل فى التصديق .

ومن باطن هذا الكفر ومن نتائجه أنْ قالوا : ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ [الإسراء] وهذا القول منهم تكذيبٌ لآيات القرآن التى جاءتْ على لسان رسول الله ﷺ لتخبرهم أنهم مبعوثون يوم القيامة ومُحاسبُون ، وهم بهذا القَوْل قد نقلوا الجدل إلى مجال جديد هو : البعث بعد الموت .

وقوله : ﴿عِظَامًا وَرُفَاتًا .. ﴿٩٨﴾﴾ [الإسراء] الرفات : هو الفُتَات وَزْناً ومعنىً ، وهو : الشىء الجاف الذى تكسَّر ؛ لذلك جاء الترتيب هكذا : عظاماً ورُفَاتاً ؛ لأن جسم الإنسان يتحلّل وتمتصُّ الأرض عناصر تكوينه ، ولا يبقى منه إلا العظام ، وبمرور الزمن تتكسّر هذه العظام ، وتتفتتْ وتصير رفاتاً ، وهم يستبعدون البعث بعد ما صاروا عظاماً ورفاتاً .

وقوله تعالى : ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ .. ﴿٩٨﴾﴾ [الإسراء] والهمزة هنا استفهام يفيد الإنكار ، فلماذا ينكر هؤلاء مسألة البعث بعد الموت ؟

نقول : لأن الكافر عنده لَدَدٌ فى ذات إيمانه ، ومن مصلحة آماله وتكذيب نفسه أنْ ينكر البعث ، وعلى فَرْض أنه سيحدث فإنهم

سيكونون فى الآخرة سادة ، كما كانوا سادةً فى الدنيا . وهؤلاء القوم يفهمون الحياة على ظاهرها ، فالحياة عندهم هى الحركة الحسية التى يمارسونها ، وبها يعيشون حياتهم هذه ، ولا يدركون أن لكل شىء حياةً تناسبه .

فمثلاً : علماء الجيولوجيا والحَفْريات يقولون : إن الأشياء المطمورة فى باطن الأرض تتغيَّر بمرور الزمن ، وتتحول إلى موادّ أخرى ، إذن : ففيها حركة وتفاعل أو قُلْ فيها حياة خاصة بها تناسبها ، فليست الحياة قاصرة على حركتنا فى الحياة الدنيا ، بل للحياة معنى آخر أوسع بكثير من الحياة التى يفهمها هؤلاء .

فالإنسان الحىّ مثلاً له فى مظهرية أموره حالتان : حالة النوم وحالة اليقظة ، فحياته فى النوم محكومة بقانون ، وحياته فى اليقظة محكومة بقانون ، هذا وهو ما يزال حياً يُرزَق ، إذن : عندما نخبرك أن لك قانوناً فى الموت وقانوناً فى البعث فعليك أنْ تُصدِّق .

ألم تَرَ النائم وهو مُغْمَض العينين يرى الرؤيا ، ويحكيها بالتفصيل وفيها حركة وأحداث وألوان ، وهو يدرك هذا كله وكأنه فى اليقظة ؟ حتى مكفوف البصر الذى فقد هذه الحاسة ، هو أيضاً يرى الرؤيا كما يراها المبصر تماماً ويحكيها لك ، يقول : رأيتُ كذا وكذا ، كيف وهو فى اليقظة لا يرى ؟

نقول : لأن للنوم قانوناً آخر ، وهو أنك تدرك بغير وسائل الإدراك المعروفة ، ولك فى النوم حياة مستقلة غير حياة اليقظة . ألاَ ترى الرجلين ينامان فى فراش واحد ، وهذا يرى رؤيا سعيدة مفرحة يصحو منها ضاحكاً مسروراً ، والآخر إلى جواره يرى رؤيا مؤلمة

مُحزِنة يصحو فيها مُكدّراً محزوناً ، ولا يدرى الواحد منهم بأخيه ولا يشعر به ، لماذا ؟

لأن لكل منهما قانونه الخاص ، وحياته المستقلة التى لا يشاركه فيها أحد .

وقد ترى الرؤيا تحكيها لصاحبك فى نصف ساعة ، فى حين أن العلماء توصلوا إلى أن أقصى ما يمكن للذهن متابعته فى النوم لا يتجاوز سبع ثوان ، مما يدلُّ على أن الزمن فى النوم زمن مُلْغى ، كما أن أدوات الإدراك ملغاة ، إذن : فحياتك فى النوم غير حياتك فى اليقظة ، وكذلك فى الموت لك حياة ، وفى البعث لك حياة ، ولكل منهما قانون يحكمها بما يتناسب معه .

وقد يقول قائل عن الرُّؤَى : إنها مجرد تخيُّلات لا حقيقةَ لها ، لكن يَرُدّ هذا القول ما نراه فى الواقع من صاحب الرُّؤْيا الذى يحكى لك أنه أكل طعاماً ، أو شرب شراباً ما يزال طَعْمه فى فمه ، وآخر ضُرِب ، ويُريك أثر الضرب على ظهره مثلاً ، وآخر يصحو من النوم يتصبَّب عَرَقاً ، وكأنه كان فى عراك حقيقى لا مجرد منام .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يُوضّح لنا أننا فى النوم لنا حياة خاصة وقانون خاص ، لنأخذ من هذا دليلاً على حياة أخرى بعد الموت .

والعلماء قالوا فى هذه المسألة بظاهرة المتواليات ، والمراد بها : إذا كانت اليقظة لها قانون ، والنوم له قانون ألطف وأخفّ من قانون اليقظة ، فبالتالى للموت قانون أخفّ من قانون النوم ، وللبعث قانون أخفّ من قانون الموت .

وقد حَسَم القرآن الكريم هذه القضية في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص]

أي : كلُّ ما يُقَال له شيء في الوجود هالك إلا الله تعالى فهو الباقي ، والهلاك ضدّه الحياة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال]

إذن : لكل شيء مهما صَغُر في كَوْن الله حياة خاصة تناسبه قبل أنْ يعتريه الهلاك .

ولذلك نعجب حينما يطالعنا العلماء بأن في علبة الكبريت هذه التي نضعها في جيوبنا قوةَ تجاذب بين ذراتها ، تصلح هذه القوة لتسيير قطار حول العالم لمدة ست سنوات ، سبحان الله .. أين هذه القوة ؟ إنها موجودة لكنّنا لا نشعر بها ولا ندركها ، إنما الباحثون في معاملهم يمكنهم ملاحظة مثل هذه الحركة وتسجيلها .

وأقرب من ذلك ظاهرة الجاذبية التي تعلّمناها منذ الصِّغَر والتي تعتمد على ترتيب الذرّات ترتيباً مُعيناً ، ينتج عنه المُوجَب والسالب ، فيتم التجاذب فكانوا يضعون لنا بُرادةَ الحديد في أنبوبة ، ويُمَرِّرون عليها قضيباً مُمغْنَطاً ، فنرى برادة الحديد تتحرك في نفس اتجاه القضيب .

إذن : في الحديد حركة وحياة بين ذراته ، حياة تناسبه بلغتْ من الدقة مَبْلَغاً فوق مستوى إدراكك .

إذن : نستطيع القول بأن للعظام وللرفات حياةً ، ولك أيها المنكر وجود حتى بعد أنْ صِرْتَ رُفاتاً ، فشيء منك موجود يمكن أن يكون

نواةً لخلْقك من جديد ، وبمنطق هؤلاء المنكرين أيهما أهونُ فى الخلْق : الخَلْق من شىء موجود ، أم الخلْق ابتداءً ؟

وقد ردَّ عليهم الحق سبحانه بقوله : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④﴾ [ق]

أى : فى علمه سبحانه عدد ذرات كل منّا ، وكم فى تكوينه من مواد ، لا ينقص من ذلك شىء ، وهو سبحانه قادر على جمع هذه الذرات مرة أخرى ، وليس أمره تعالى متوقفاً على العلم فقط ، بل عنده كتاب دقيق يحفظ كل التفاصيل ، ولا يغيب عنه شىء .

وقال تعالى كذلك فى الرد عليهم : ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑮﴾ [ق] أى : فى خَلْط وشكٍّ وتردُّد .

وقد ناقشنا منْ منكرى البعث الشيوعيين الذين قتَّلوا فى أعدائهم ، وأخذوا أموالهم مُعاقبةً لهم على ما اقترفوه من ظلم الناس ، فكنت أقول لهم : فما بال الذين ماتوا من هؤلاء ، ولم يأخذوا حظّهم من العقاب ؟ وكيف يذهبون هكذا ويُفلتون بجرائمهم ؟ لقد كان الأوْلَى بكم أنْ تؤمنوا بالآخرة التى يُعاقب فيها هؤلاء الذين أفلتوا من عقاب الدنيا ، حتى تتحقق عدالة الانتقام .

وقوله تعالى : ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ⑨⑧﴾ [الإسراء]

إنهم يستبعدون البعث من جديد ؛ لذلك فالحق سبحانه وتعالى يجارى هؤلاء ويتسامح معهم ، فيقول : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. ②⑦﴾ [الروم]

فإعادة شىء كان موجوداً أسهلُ وأهونُ من إيجاده مِنْ لا شىء ،

والحديث هنا عن بَعْث الإنسان ، هذا المخلوق الذى أبدعه الخالق سبحانه ، وجعله سيد هذا الكون ، وجعل عمره محدوداً ، فما بالكم تنشغلون بإنكار بعث الإنسان عن باقى المخلوقات وهى أعظم فى الخَلْقِ من الإنسان ، وأطول منه عُمراً ، وأثبت منه وأضخم .

فلا تَنْسَ أيها الإنسان أن خَلْقك أهونُ وأسهلُ من مخلوقات أخرى كثيرة هى أعظم منك ، ومع ذلك تراها خاضعة لله طائعة ، لم تعترض يوماً ، ولم تنكر كما أنكرتَ ، يقول تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر]

فمَنْ ينكر بَعْث الإنسان بعد أن يصير رفاتاً عليه أن يتأمل مثلاً الشمس كآية من آيات الله فى الكون ، وقد خلقها الله قبل خَلْق الإنسان ، وستظل إلى ما شاء الله ، وهى تعطى الضوء والدفء دون أنْ تتوقف أو تتعطّل ، ودون أن تحتاج إلى صيانة أو قطعة غيار ، وهى تسير بقدرة الخالق سبحانه مُسخّرة لخدمتك ، ما تخلّفتْ يوماً ولا اعترضتْ . فماذا يكون خَلْقك أنت أيها المنكر أمام قدرة الخالق سبحانه ؟

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُوراً (٩٩) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا .. (٩٩) ﴾ [الإسراء]

إذا جاءت همزة الاستفهام بعدها واو العطف وبعدها نفى ، فاعلم أن الهمزة دخلتْ على شىء محذوف ، إذن : فتقدير الكلام هنا : أيقولون ذلك ويستبعدون البعث ولم يَرَوْا أن الله الذى خلق السموات والارض قادر على أنْ يخلقَ مثلهم .

وقوله تعالى : (مِثْلَهُمْ) أى : يخلقهم هم ويُعيدهم من جديد ؛ لان الخَلْق إنشاء جديد ، فهُمْ خَلْق جديد مُعَادٌ ، فالمثلية هنا فى أنهم مُعَادون ، أو يكون المراد (مِثْلهم) أى : ليسوا هم ، بل خَلْق مختلف عنهم على اعتبار أنهم كانوا فى الدنيا مختارين ، ولهم إرادات ، أما الخلق الجديد فى الآخرة وإنْ كان مثلهم فى التكوين إلا أنه عاد مقهوراً على كل شىء لا إرادةَ له ؛ لانه الآن فى الآخرة التى سينادى فيها الخالق سبحانه : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]

وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُوراً ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء]

أى : أن القيامة التى كذَّبوا بها وأنكروها واقعة لا شكَّ فيها ، لكن هؤلاء معاندون مُصِرُّون على الكفر مهما أتيتَ لهم بالادلة ، ومهما ضربتَ لهم الامثلةَ ، فإنهم مُصمِّمون على الإنكار ؛ لان الإيمان سيسلبهم ما هم فيه من السيادة وما يدعونه من العظمة ، الإيمان سيُسوِّى بينهم وبين العبيد ، وسيُقيِّد حريتهم فيما كانوا فيه من ضلال وفساد .

لكن هؤلاء السادة والعظماء الذين تأبَّوْا على الإيمان ، وأنكروا البعث خوفاً على مكانتهم وسيادتهم وما عندهم من سلطة زمنية ، ألم تتعرَّضوا لظلم من أحد فى الدنيا ؟ ألم يعتَدِ عليكم أحد ؟ ألم يسرق

منكم أحد ولم تتمكنوا من الإمساك به ومعاقبته ؟ لقد كان أوْلَى بكم الإيمان بالآخرة حيث تتحقق عدالة العقاب وتنالون حقوقكم مِمَّنْ ظلمكم ، أو اعتدى عليكم .

ثم ينتقل السياق القرآنى إلى موضوع جديد ، حيث يقول تعالى :

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾

قوله تعالى : (قُلْ) أمر من الحق سبحانه وتعالى أنْ يقولَ لأمته هذا الكلام ، وكان يكفى فى البلاغ أن يقول النبى ﷺ لأمته : لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى .. لكن النبى هنا يحافظ على أمانة الأداء القرآنى ، ولا يحذف منه شيئاً ؛ لأن المتكلم هو الله ، وهذا دليلٌ على مدى صدق الرسول فى البلاغ عن ربه .

ومعنى (خَزَائِن) هى ما يُحفظ بها الشىء النفيس لوقته ، فالخزائن مثلاً -لا نضع بها التراب ، بل الأشياء الثمينة ذات القيمة .

ومعنى ﴿ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى .. ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الإسراء] أى : خَيْرات الدنيا من لَدُنْ آدم عليه السلام وحتى قيام الساعة ، وإنْ من شىء يحدث إلى قيام الساعة إلا عند الله خزائنه ، فهو موجود بالفعل ، ظهر فى عالم الواقع أو لم يظهر : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر] أى : أنه موجود فى علْم الله ، إلى حين الحاجة إليه .

لذلك لما تحدَّث الحق سبحانه عن خلق الآيات الكونية فى السماء والارض قال : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا

وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ [فصلت]

نلاحظ أن قوله تعالى (وَبَارَكَ فِيهَا) جاءت بعد ذكر الجبال الرواسى ، ثم قال : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت] كأن الجبال هى مخازن القوت ، وخزائن رحمة الله لأهل الأرض . والقوت : وهو الذى يتمّ به استبقاء الحياة ، وهذا ناشىء من مزروعات الأرض ، وهذه من تصديقات القرآن لطموحات العلم وأسبقية إخبار بما سيحدث ، فها هو القرآن يخبر بما اهتدى إليه العلم الحديث من أن العناصر التى تُكوِّن الإنسان هى نفس عناصر التربة الزراعية التى نأكل منها .

لكن ، كيف تكون الجبال مخازن القوت الذى جعله الله فى الأرض قبل أن يُخلَق الإنسان ؟

نقول : إن الجبال هى أساس التربة التى نزرعها ، فالجبل هذه الكتلة الصخرية التى تراها أمامك جامدة هى فى الحقيقة ليست كذلك ؛ لأن عوامل التعرية وتقلبات الجو من شمس وحرارة وبرودة ، كل هذه عوامل تُفتِّت الصخر وتُحدِث به شروخاً وتشققات ، ثم يأتى المطر فيحمل هذا الفُتات إلى الوادى ، ولو تأملتَ شكل الجبل وشكل الوادي لوجدتهما عبارة عن مثلثين كل منهما عكس الآخر ، فالجبل مثلث رأسه إلى أعلى ، وقاعدته إلى أسفل ، والوادى مثلث رأسه إلى أسفل وقاعدته إلى أعلى .

وهكذا ، فكُلُّ ما ينقص من الجبل يزيد فى الوادى ، ويُكوِّن التربة الصالحة للزراعة ، وهو ما يسمى بالغرْيَن أو الطمى ؛ لذلك حدَّثونا أن مدينة دمياط قديماً كانت على شاطىء البحر الأبيض ، ولكن بمرور الزمن تكوَّنت مساحات واسعة من هذا الغرْيَن أو الطمى الذى حمله النيل من إفريقيا ففصل دمياط عن البحر ، والآن وبعد بناء السد وعدم تكوُّن

الطمى بدأت المياه تنحت فى الشاطىء ، وتنقص فيه من جديد .

إذن : فقوله تعالى عن بداية خَلْق الأرض : ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ⟨١٠⟩﴾ [فصلت] كأنه يعطينا تسلسلاً لخَلْق القُــوت فى الأرض ، وأن خـزائن الله لا حـدودَ لهـا ولا نفـادَ لخيراتها .

ثم يقـول تعـالى : ﴿إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ⟨١٠٠⟩﴾ [الإسراء]

أى : لو أن الله تعالى ملَّك خزائن خيراته ورحمته للناس ، فأصبح فى أيديهم خزائن لا تنفد ، ولا يخشى صاحـبها الفقر ، لو حدث ذلك لأمسك الإنسان وبخِلَ وقَـتَّر خوف الـفقر ؛ لأنه جُـبِل على الإمـساك والتقـتير حـتى على نفسه ، وخـوف الإنسان من الفـقر ولو أنه يملك خزائن رحمـة الله التى لا نفادَ لها ناتج عن عدم مـقدرته على تعويض ما أنفق ؛ ولأنه لا يستطيع أنْ يُحدث شيئاً .

والبخل يكون على الغير ، فإنْ كان على النفس فهو التقتير ، وهو سُبَّة واضحـة ومُخزية ، فقد يقبل أن يُضيِّق الإنسـانُ على الغير ، أما أنْ يُضـيق على نفسه فـهـذا منتهـى ما يمكن تصـوُّره ؛ لذلك يقـول الشاعر[1] فى التندُّر على هؤلاء :

يُقتِّر عيسَـى علَى نَفْسِه ... ولَيْـسَ بباقٍ ولاَ خَـالد
فلَـوْ يسـتطيعُ لتَقتِيـرِه ... تنفَّسَ مِنْ مَنْخـرٍ وَاحِد

---

(١) هو : الشاعر ابن الرومى ، وهو على بن العباس بن جريج ، أبو الـحسن ، شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبى ، كان جده من مـوالى بنى العباس ، ولد ببغداد (ت ٢٢١ هـ) ونشا بها ، ومات فيها مسموماً (٢٨٣ هـ) عن ٦٣ عاماً . (الأعلام للزركلى ٤/٢٩٧) .

ويقول أيضاً :

لَوْ أنَّ بيتَكَ يَا ابْنَ يوسف كُلُّه إبرٌ يَضِيقُ بِهاَ فَضَاءُ المنْزِلِ

وأتَاكَ يُوسُفُ يَستعيرُكَ إبْرةً لِيَخيطَ قدَّ قميصِهِ لَمْ تفْعَلِ(١)

فالإنسان يبخل على الناس ويُقتِّر علَى نفسه ؛ لأنه جُبِل علَى البخل مخافة الفقر ، وإنْ أُوتى خزائن السموات والأرض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾

وقد سبق أن اقترح كفار مكة على رسول الله ﷺ عدة آيات ذُكرَتْ فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء]

فأراد الحق سبحانه أنْ يُلفت نظره أن سابقيهم من اليهود أتتهم تسع آيات ونزلت عليهم دون أنْ يطلبوها ، ومع ذلك كفروا ، فالمسألة كلها تعنّت وعناد من أهل الكفر فى كل زمان ومكان .

ومعنى ﴿ بَيِّنَاتٍ .. ﴿١٠١﴾ ﴾ [الإسراء] أى : واضحات مشهورات بلْقاء

(١) البيت لابن الرومى أيضاً .

كالصبح ، لأنها حدثت جميعها على مَرْأىً ومشهد من الناس .

والمراد بالآيات التسع هنا هى الآيات الخاصة بفرعون ؛ لأن كثيرين يخلطون بين معجزات موسى إلى فرعون ، ومعجزاته إلى بنى إسرائيل .

إذن : فقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .. (١٠١)﴾ [الإسراء] هى الآيات التى أُرسِل بها إلى فرعون وقومه وهى : العصا التى انقلبتْ حية ، واليد التى أخرجها من جيبه بيضاء مُنورة ، وأَخْذ آل فرعون بالسنين ونَقْص من الأموال والأنفس والثمرات ، ثم لما كذَّبوا أنزل الله عليهم الطوفان ، والجراد ، والقُمَّل[1] ، والضفادع ، والدم ، هذه تسع آيات خاصة بما دار بين موسى وفرعون .

أما المعجزات الأخرى مثل العصا التى ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، ونتق[2] الجبل فوقهم كأنه ظُلَّة ، وإنزال المنِّ والسَّلْوى عليهم ، فهذه آيات خاصة ببنى إسرائيل .

وقوله تعالى : ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. (١٠١)﴾ [الإسراء] والأمر هنا لرسول الله ﷺ ، لكن كيف يسأل بنى إسرائيل الذين جاءهم موسى ـ عليه السلام ـ وقد ماتوا ، والموجود الآن ذريتهم ؟

نقول : لأن السؤال لذريتهم هو عَيْن سؤالهم ؛ لأنهم تناقلوا الأحداث جيلاً بعد جيل ؛ لذلك قال تعالى مُخاطباً بنى إسرائيل

(١) القُمَّل : صغار الذر والدبى . وهو شىء صغير له جناح أحمر . قال ابن السكيت : القُمَّل شىء يقع فى الزرع ليس بجراد فيأكل السنبلة وهى غضة قبل أن تخرج فيطول الزرع ولا سُنبل له . [لسان العرب ـ مادة : قمل] .

(٢) نتقه : رفعه من مكانه وحرّكه وجذبه . [القاموس القويم ٢/٢٥٢] .

المعاصرين لرسول الله : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ(١) سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ [إبراهيم]

والنجاة لم تكُنْ لهؤلاء ، بل لأجدادهم المعاصرين لفرعون ، لكن خاطبهم الحق بقوله (أنجاكم) لأنه سبحانه لو أهلك أجدادهم لما وُجدُوا هم ، فكأن نجاة السابقين نجاةٌ للاحقين .

ويسأل رسول الله بنى إسرائيل لأنهم هم الأمة التى لها ممارسة مع منهج الله ووحيه ، ولها اتصال بالرسل وبالكتب المنزَّلة كالتوراة والإنجيل ، أما مشركو قريش فليس لهم صلة سابقة بوَحْى السماء ؛ لذلك لما كذَّبوا رسول الله خاطبه بقوله : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الرعد]

لأن الذى عنده عِلْم من الكتاب : اليهود أو النصارى عندهم عِلْم فى كتبهم وبشارة ببعثة محمد ، وهم يعرفونه ويعرفون أوصافه وزمن بعثته ، بل ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، بل وأكثر من معرفتهم لأبنائهم ، كما قال واحد منهم(٢) .

وسؤال رسول الله لبنى إسرائيل سؤالَ حُجَّة واستشهاد ؛ لأن قومه سألوه وطلبوا أنْ يظهر لهم عدة آيات ـ سبق ذِكْرها ـ لكى يؤمنوا به ، فأراد أنْ يُنبِّههم إلى تاريخ إخوانهم وسابقيهم على مَرِّ

(١) يسومونكم : يذيقونكم أشد العذاب . قال الليث : السوم أن تُجشِّم إنساناً مشقة أو سوءاً أو ظلماً . [لسان العرب ـ مادة : سوم] .

(٢) هو عبد الله بن سلام . قال القرطبى : يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر . نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه . [ذكره ابن كثير فى تفسيره ١/١٩٤] .

العصور ، وقد أنزل الله لهم الآيات الواضحات والمعجزات الباهرات ، ومع ذلك كفروا ولجُّوا ولم يؤمنوا . فقوم فرعون رأَوْا من موسى تسع آيات وكفروا ، وقوم صالح : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا.. (٥٩) ﴾ [الإسراء] ولَيْتهم كذَّبوا وكفروا بهذه الآية فحَسْب ، بل واعتدَوْا عليها وعقروها .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ .. (٥٩) ﴾ [الإسراء] أي : التي اقترحوها ﴿ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ .. (٥٩) ﴾ [الإسراء] وما دام كذَّب بها الأولون فسوف يُكذِّب بها هؤلاء ؛ لأن الكفر مِلَّة واحدة في كل زمان ومكان .

إذن : مسألة طلب الآيات واقتراح المعجزات ليستْ في الحقيقة رغبة في الإيمان ، بل مجرد عناد ولَجَج ومحاولة للتعنُّت والجدَل العقيم لإضاعة الوقت .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ (١٠١) ﴾ [الإسراء] أي : بعد أنْ رأى الآيات كلها : ﴿ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً (١٠١) ﴾ [الإسراء] فاتهمه بالسحر بعد أنْ أراه كُلَّ هذه الدلائل والمعجزات .

وكلمة ﴿ مَسْحُوراً (١٠١) ﴾ [الإسراء] اسم مفعول بمعنى سحره غيره ، وقد يأتي اسم المفعول دالاً على اسم الفاعل لحكمة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً (٤٥) ﴾ [الإسراء]

والحجاب يكون ساتراً لا مستوراً ، لكن الحق سبحانه جعل الحجاب نفسه مستوراً مبالغة في السَّتْر ، كما نبالغ نحن الآن في استعمال الستائر ، فنجعلها من طبقتين مثلاً .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ظِلاًّ ظَلِيلاً (٥٧)﴾ [النساء] فالظل نفسه مُظلَّل ، ونستطيع أن نلاحظ هذه الظاهرة إذا جلسنا في الحرِّ تحت شجرة ، فسوف نجد الهواء تحتها رَطباً بارداً ، لماذا ؟ لأن أوراق الشجر مُتراكمة يُظلِّل بعضها بعضاً ، فتجد أعلاك طبقات متعددة من الظل ، فتشعر في النهاية بجو لطيف مُكيف تكييفاً ربانياً .

إذن : قوله (مسحوراً) تفيد أنه سحَرَ غيره ، أو سحره غيره ؛ لأن المسحور هو الذي ألَمَّ به السحر ، إما فاعلاً له ، أو مفعولاً عليه . وهذه الكلمة قالها كفار مكة لرسول الله ﷺ فقالوا : ﴿إن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً (٤٧)﴾ [الإسراء] والمسحور بمعنى المخبول الذي أثّر فيه السحر ، فصار مخبولاً مجنوناً ، وهذا كذب وافتراء على رسول الله من السهل رَدُّه وضَحْده .

فإنْ كان ساحراً ، فكيف يسحره غيره ؟! ولماذا لم يسحركم كما سحر الذين آمنوا به ؟ لماذا تأبَّيتم أنتم على سحره فلم تؤمنوا ؟ وإنْ كان مسحوراً مَخْبُولاً ، والمخبول تتأتَّى منه حركات وأقوال دون أنْ تَمُرَّ على العقل الواعي الذي يختار بين البديلات ، فلا يكون له سيطرة على إراداته ولا على خُلقه ، فهل عهدكم بمحمد أنْ كان مَخبولاً ؟ هل رأيتم عليه مثل هذه الصفات ؟

لذلك رَدَّ الحق سبحانه عليهم هذا الافتراء بقوله تعالى : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤)﴾ [القلم]

والمجنون لا يكون على خُلُق أبداً .